تفسير

سورة الفاتحة

تفسير
سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

نظام هذه السورة ذو جهات كجوهرة ذات أطراف براقة، فنذكر جهات النظام واحدة بعد واحدة.

الجهة الأولى: إن هذه السورة ديباجة القرآن، وجامعة لعلومه الثلاث

تذكرة

﴿الحمد لله رب العالمين﴾ مقام الشكر والذكر.

﴿مالك يوم الدين﴾ مقام التوكل والتسليم.

﴿إياك نعبد﴾ مقام الإخلاص والتوحيد.

﴿وإياك نستعين﴾ مقام التوحيد والتوكل.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ جامع للإيمان والإسلام.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ جامع الإسلام.

تذكرة

﴿غير المغضوب عليهم﴾ في إعرابه اختلافات ولعل فيه أسلوبا خاصا للنفي، وأصله: لا تمدنا صراط الذين غضب عليهم، و هو بدل من الموصول كما قال تعالى: ﴿و لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ فإنه معطوف على قوله ﴿الذين جاهدوا منكم﴾ [سورة التوبة/١٦]

على الإجمال، ولذلك سماها العلماء موفية. ومن حيث إنها ديباجة القرآن، وحاوية لجميع علومه هي قرآن مستقل كما أن ديباجة الكتاب من حيث أنها هي شئ زائد عليه. وهذا إنما هو من جهة اعتبار واحد، وإلا فالديباجة ليست إلا جزءا من الكتاب.

وذلك أمر استنبط العلماء من القرآن، فإن الله تعالى تنبيها لعظم منته على نبيه قال: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم﴾ [سورة الحجر/٨٧].

وقد اتفقت العلماء من السلف إلى الخلف على أن السبع المثاني هذه سورة الفاتحة فانظر كيف سماها الله على حدتها قرآنا عظيما، كأن لهذه السبع شأنا على حدتها وإن قيل إن العطف ليس للتفسير، بل المراد: إنا أعطيناك هذه الآيات السبع ومعها القرآن العظيم، فعلى هذا التأويل أيضا هي زائدة على القرآن العظيم، فإلى أي تقدير تذهب تجدها مستقلة وجامعة.ومن ههنا تستدل على كنه ما روي من أن الفاتحة لم تكن في مصحف عبد الله بن مسعود فإن القرآن مكتوب في الصدور، وقد جاء به

تذكرة

موقع "إياك نعبد وإياك نستعين" بعد "مالك يوم الدين"

فاعلم أن "مالك يوم الدين" ذكر الرب من جهة كونه ديانا ومن جهة التوكل، فإن العلم بالدينونة يهيج التوكل. وبعد التوكل إقرار العبودية والاستعانة حسن طلب المغفرة والعذر كما ترى في قول المسيح ﵇: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [سورة المائدة/١١٨].

أي نحن عبادك، فافعل بنا ما يفعل الرب لعبده، ولا قوة لنا بالخير إلا بك، فإن أخطأنا فقد سألنا القوة منك.

جبريل وتعلمه النبي الكريم ﷺ وعلمه أصحابه ووعوه بالقراءة وإنما كتبوه وجمعوه في المصحف لأجل ذلك فإن صح أن عبد الله بن مسعود ﵁ لم يكتب الفاتحة في مصحفه، فلأنها مكتوبة في صدر كل مؤمن، وتجري بها ألسنتهم كل يوم بأكثر من اثنتين وثلاثين مرة. وما أوعيت صدرك فقد بالغت في حفظه، فإنه مع روحك وجسمك، فليس لملك جابر أن يأخذ منك، ولست تحتاج إلى نقله وحفظه في متاعك عند ترامي السفر بك.

وكانت العرب لا تكتب ما تقدر على حفظه من الكلام. وقد حفظ الله القرآن بهذا الطريق، فأنشأ في الأمة حفاظا إن تعدهم لا تحصهم أبقاهم الله وكثرهم.

وهذا أمر جاء في التوراة مثله، فإن الأمة أمرت بحفظ كلمة التوحيد بكل طريق وبقية الأحكام أودعت صحيفة، ونسيت وأضيعت. ولما جعل الله هذه السورة في صلاتنا أوجب على جميع الأمة أن يكتبوها في قلوبهم فهذا هو المراد من قول عبد الله بن مسعود ﵁، والغافلون لم يفهموه، وظنوا أنه ﵁ أخرجه عن القرآن ؛ حاشاه الله عن ذلك.

٢- وأما أنها كيف جمعت علوم القرآن، فالقرآن بحسب الإجمال يعطيك علوما ثلاثة: (١) التوحيد (٢) والشرائع (٣) والمعاد، وإن فصلنا هذه الأمور، بحيث تراها تسع جميع القرآن، خرجنا عن هذا البحث إلى فضاء عريض، وسيظهر ذلك على من يتلو القرآن بالتأمل.

ولا نقول إن بعض آياتها في التوحيد، وبعضها في الشرائع، وبعضها في المعاد على حدتها فإن هذه العلوم فيها ممزوجة، فلا تراها مفترقة والتوحيد كجلباب أسبل على السورة، ثم تحتها الشرائع والمعاد وتتجلى لك هذه الإشارات من تفسير السورة إن شاء الله تعالى.

٣- ومن هذا الذي قدمناه تبين لك حكمة وضع هذه السورة للصلاة فإن الذي قرأ الفاتحة كأنه قرأ جميع القرآن إجمالا وبعد علم التفاصيل يذكرك الإجمال جميعها وسنبين لك أن هذه العبارة إكمال الصلاة، ولا صلاة أكمل من صلاة حوت هذه الكلمات وهي بغير هذه الكلمات المعجزة أيضا مأثورة للصلاة[٣٦]، فلا صلاة إلا بها.

ولذلك أخبرنا النبي الكريم ﷺ بأن لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، وما أرحم نبينا بالأمة حيث قال ثلاث مرات: خداج خداج خداج، لكي يعلموا محل هذه السورة في تكميل الصلاة، ولا يتركوه، كما ترى اليهود والنصارى، فإنهم لم يعرفوا قدر هذه السورة، وهي في كتبهم وصلاة أنبيائهم، كما سنذكر في الفصل...[٣٧] فجعلوا في صلاتهم أدعية لفقوها، وكم مرة بدلوها، واقتتلوا عليها.

ولكن الله تعالى من علينا، أمة محمد ﷺ خاتم النبيين، بأن كل طائفة يعبأ بها من المسلمين يقرعون هذه السورة في صلاتهم، كما أنهم لا خلاف بينهم في عدد الصلاة وركعاتها، وقيامها وقعودها فحفظ الله تعالى هذه الصلاة كما حفظ القرآن عن التبديل والتحريف.

فنشكر الله ربنا على ما حفظ هذه الأمة عن العثرات، ولم يتركها كاليهود والنصارى في ضلال وظلمات وظهر أن الإسلام إلى الآن منصور، وظله مبسوط، والأمم إليه راغبة والأنوار عليها نازلة، وكتاب الله فينا عهده، وصلاتنا ذكر ذلك العهد، كما شهد به التوراة والإنجيل والقرآن،

---

٣٦ يشير المؤلف رحمه الله إلى الدعاء الوارد في بعض الأناجيل ، وقد فسره في الفصل الثاني

٣٧ بياض في الأصل ، وانظر الفصل الثاني .

وبسط القول في تفسير آخر سورة الفتح[٣٨].

وإنما ذكرت هذا الأمر لكيلا تذهل عن منزلة هذه السورة، ومنزلة الصلاة التي هي تقرأ فيها بالإخلاص، ثم لكيلا تلتفت إلى قول الذي يدعي أن الإسلام مخذول والنور عنه محجوب إلا ما خصت به فرقته الشاذة.

إن الله بعث خاتم الأنبياء ووعد، فأنجز له النصرة، وإتمام النعمة كما قال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [سورة الصف/٩] وقد كثر بشارة الفتح بهذا النبي حتى أن اليهود كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا [سورة البقرة/٨٩] وقد جاء في الكتب المقدسة مدح الذين يدخلون يروشلم، ومدح في القرآن نماء هذه الشجرة حيث قال:

﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ [سورة الفتح/٢٩] فهل كان هذا الظهور ظلا زائلا وشجرة مجتثة وبرقا خلبا كلا! إن الباطل يزهق، والحق ينمو ويبسق.

٤- الجهة الثانية: قد علمت أن الفاتحة من جهة كونها ديباجة هي جامعة لمعاني القرآن، فكما أنها جامعة لعلومه الثلاثة، فكذلك هي جامعة له من جهة نظامها أيضا. فإنك إذا تلوت الفاتحة تجلت لك جملة القرآن حسب نظمها، فمثلها كمثل مرآة صغيرة تريك شيئا عظيما في هيئته وصورته فهذه جهة أخرى لكونها موفيه وجامعة.

وبيان ذلك أن القرآن إذا رأيته بجملته وجدته يبتدى بحمد الله

---

٣٨ لم يكمل رحمه الله تفسير هذه السورة .

تعالى، ثم تراه يكشف عن أصول الإسلام ظاهرا وباطنا حتى ينتهي إلى كمال الفتح والنصرة، وإهلاك المخالفين، وإتمام فرض النبوة. وجعل سورة التوحيد آخر العهد بالله تعالى ثم ترى بعد تكميل هذه المدينة الإلهية، وسورها، وبروجها حارسين أو سورتين أو سيفين أو صارماً ذا شفرتين، وذلك سورتا المعوذتين كأن القرآن جنة عدن يحرسها كروبيان بسيفين لامعين والتفصيل في تفسير نظام السور.

فإذا صورت القرآن في نفسك هكذا، رأيت الفاتحة تشابهه في هذه الهيئة فإن أولها حمد الله، ثم بعد ذلك عدل يحوي المعاملات كلها، ثم أصلان للعبادات، ثم الصراط المستقيم الذي هو التوحيد والسنة كما سنبينه، ثم الاستعاذة من جهتين، ظاهرة وباطنة، كما في المعوذتين وشرح هذا يطول وإنما تتضح لك المقابلة بعد الاطلاع على تفسير السور الأخيرة، ولكن ستقف على بعض الأمور عند تفسير كلمات هذه السورة إن شاء الله تعالى.

فهذه السورة أيضا مثلها كمثل جنة عدن يحرسها الكروبيان، وليس هذا التشبيه من تخيلات الشعراء، بل له أصل غامض وسنذكره إن شاء الله تعالى.

٥- الجهة الثالثة: إن هذه السورة لكونها أصل الصلاة إذا قدمت على سائر القرآن العظيم، استنبطنا من موضعها أن الصلاة أول الأحكام، وأن تارك الصلاة نابذ للدين. ولما كان هذا الاستنباط بطريق الإشارة نظرنا في أحكام القرآن والسنة فوجدناه موافقا لهما. فصحت هذه الإشارة عندنا، وعظمت لدينا منزلة الصلاة بأن الله تعالى جعلها فاتحة عهده بنا.

وقد ذكرنا في تفسير سورة البقرة تحت آية: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢] أن عهد الرب بهذه الأمة إقامة الصلاة، فمتى تمسكنا

بها تمسكنا بحبل الله، وعروته الوثقى فينصرنا على أعدائنا، ويحفظنا من أعدى عدونا الذي بين جنبينا كما وعد بنا كثيرا في كتابه. وصرح بهذا الحفظ حيث قال عز من قائل: ﴿إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ [سورة العنكبوت/٤٥] وأخبرنا عن غواية القوم لتركهم الصلاة حيث قال:﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾ [سورة مريم/٥٩].

وقد وضعت هذه الآية بعد ذكر الذين أنعم عليهم من النبيين، وأتباعهم. فلم يخف علينا أن ترك الصلاة هو الخروج عن الذين أنعم الله عليهم، وهم حزب الله ثم في هذه السورة أكد هذا بالدعاء الخاص بأن يسلكنا سبيل هذا الحزب المبارك. وليكفنا الآن هذا القدر وتجد زيادة على هذا في سورة الحج تحت آية: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة و آتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [الآية/٤١]

تذكرة

سورة الحمد أول القرآن وآخر الزبور، وفيه بشارة بهذا النبي اتل آيات ٦-٩ (مزامير ١٤٩)

حيث يقول: "الله أكبر في فمهم والسيف ذو الشفرتين في أيديهم".

هذه سورة الشكر والذكر، وسورة العهد والصلاة هي العهد، وذكر له، والعهد على التوحيد.

فقولنا: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ إقرار بالتوحيد وذكر لما عاهدنا به ربنا أولا، كما ذكر في قوله:

﴿ألم اعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ [سورة يس/٦٠-٦١].

فقوله: ﴿إياك نستعين﴾ جامعة بين الإقرار والدعاء، فإن طلب الهداية من

الاستعانة وقد وعد الله تعالى الإجابة حيث قال: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [سورة البقرة/١٥٢] وجعل الصلاة صورة الذكر فكأنه قال: صلوا فيكون الرب معكم، وينصركم. ولذلك جعل النصر منوطا بالصلاة، والخذلان بتركها. ولذلك قال: ﴿والذين يمسكون بالكتاب (أي عهد الله) وأقاموا الصلوة﴾ [سورة الأعراف/١٧٠].

تذكرة

(الحمد) أول علمنا من جهة التربية، وذلك بما نرى من تربيتنا وتسخير السماوات والأرض وما بينهما لمصالحنا. وكذلك هو أصل علمنا من جهة فطرتنا، فإنا نوقن بصحة مداركنا وذلك يستلزم كون الرب حميدا، كما فصلناه في كتاب "حجج القرآن"[39] وغيره وهو الواجب بالذات، لأن الإله الحق بمعنى المحسن أو كامل الحسن لهو المستحق للحمد، ويجب علينا شكره فنحمده.

و ﴿رب العالمين﴾ يلزم حمده وشكره من الكل.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أول ما يطلب، فإنه التوحيد، وتفصيله هو الطريق الموصل إلى الرب، وهو الشرع ويلزمه الإطاعة للرسل. وهو أجمع الأدعية، وأتمها وهو أولها. فإن كل عمل وعلم اخطأه بطل وأبعد.

﴿الرحمن﴾ تفسير كونه إلها، و ﴿الرحيم﴾ تفسير الرحمن، و ﴿مالك يوم الدين﴾ توكل، فلا يكون إلا على الإله الرب.

﴿إياك نعبد﴾ يستلزم كونه إلها، وربا، ومالكا في الآخرة.

﴿وإياك نستعين﴾ فأما "إياك" فلما مر، وأما "نستعين" فلتحقيق العبادة، وكمال التعبد – التعبد به وبحو له.

وأيضا ﴿إياك نستعين﴾

لبعض ما في "نعبد"، فإن التوحيد لا يكون بغير توحيد الاستعانة.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ تفسير لما مر من الطلب، ولما تضمن من معنى التوحيد.

---

٣٩ كتاب للمؤلف ، طبع أولا في سنة ٢٠٠٣ انظر الفصل المتعلق بهذا المبحث .

وفي الجملة الأولى من سورة "قد أفلح"، وفي سورة البقرة تحت آية: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾ [سورة البقرة/٢٣٨] وفي سورة الكوثر، وغيرها إن شاء الله تعالى.

٦- فهذه جهات ثلاث لنظامه بالنسبة إلى سائر القرآن العظيم فأما نظام آياته فقبل إيضاحه نرفع بعض الحجب عن الأسرار التي لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى، ولكن تخرج منها لوامع للمتوسم. وإذ هي ليست بالنص الصريح، فلا يجب على العامة أن يؤمنوا بها.

وإنما أردت كشفها، لأن في هذا الزمان نشأت فرقة تؤول القرآن مع الجهل به، كما نشأت فرقة في ابتداء خروج الباطنيين. وادعت دعاتهم للسلطنة أنها من أئمة معصومين مع تصريح المجتهدين منهم باستخراجها من كتب الأنبياء، والفلسفة. فكذلك في زماننا ادعت فرقة أن رسولا أرسل إليهم، وكشف له أسرار القرآن العظيم، ففتن ناسا قلت معرفتهم بهذه العلوم، وشق عصا المسلمين، وقضى بالهلاك على من لا يؤمن بهذا الرجل و وحيه.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ تفسير لصراط التوحيد، وتشخيص له. وما بعدها جهة أخرى لما سبق على جهة النفي، فذكر كلا الطرفين إيجابيا وسلبيا.

تذكرة

دل على أولية الصلاة بوضع سورة الفاتحة في أول الكتب، وجعل التمسك بها التمسك بالكتاب، حيث قال: ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ [سورة الأعراف/١٧٠] وإشارة في ذلك إلى معنى الكتاب، وهو القرآن العظيم من جهة كونه متضمنا على الشرائع وهكذا قال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ [سورة الأنعام/٩٢].

ولما رأيت فتنة الناس بهذا المدعي، مع خلطه الحق بالباطل، أردنا أن نرفع بعض الحجب ليستمعوا القول، فيتبعوا أحسنه، ويعلموا أن الوحي والرسالة فوق ما زعموا، ولا نتمسك إلا بالقرآن أو كتب الأنبياء، ومع أني سلكت في هذا البحث مسلك أصحاب الرموز والإشارات فإني تجنبت سخافة الاستدلال، وصرف الألفاظ عن ظواهرها وبعد هذا التمهيد والاحتياط أكشف بحوله تعالى حجبا مستورة.

٧- **الحجاب الأول:** يرفع عن سر عدد آيات الفاتحة

فاعلم أنه لم يصرح بعدد آيات سورة غير هذه، بل سماها الله تعالى بعدد آياتها، فدعانا إلى التدبر فيه وللعدد اعتبار عظيم في الكتب المقدسة، وكذلك عند الحكماء جميع أمور العالم مقدر بالأعداد، وبمثل ذلك جاء القرآن العظيم حيث قال تعالى: ﴿إنا كل شئ خلقنا بقدر﴾ [سورة القمر/٤٩] ومثله: ﴿وكل شئ عنده بمقدار﴾ [سورة الرعد/٨] وبسط ذلك في كتاب " التقدير والحسبان" [٤٠] فلسنا ذاهبين في سبيل التوهمات إذا تدبرنا في مطابقات الأعداد، وإشاراتها.

هذا، وقد أخبرنا القرآن أن الثمانية عدد حملة العرش يوم القيامة، حيث قال: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ [سورة الحاقة/١٧] وقد فهموا، ونفهم أنها تزيد ذلك اليوم، والآن هم أربعة كما جاء في الخبر من غير تفصيل ولكنا نجد في كتب الأنبياء تفصيله، وذلك أن النبي ذا الكفل عليه السلام، وكذلك يحيي عليه السلام رأى تحت العرش سبعة أرواح، وأربعة ملائكة يسبحون ويهللون. فإلى هذا نؤول الخبر.

وقد علمنا من القرآن أن الروح أخص من الملائكة كالإنسان من

---

٤٠ لم نعثر على الكتاب المذكور في آثار المؤلف رحمه .

الحيوان، كما قال الله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾ [سورة النبأ/٣٨] وكما قال تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ [سورة القدر/٤] انظر كيف قدم الروح في ذكر القيام، وقدم الملائكة في ذكر النزول لتعلم أن مقام الروح أرفع وأقرب، ثم في ذكر حملة العرش جاء بكلمة تعم كليهما، ولكن فرق بين الحملة ومن حول العرش فقال: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ [سورة غافر/٧] وقال: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ [سورة الزمر/٧٥] فعلمنا أن الحملة العليا هم الأرواح السبع، وحول العرش ملائكة حافون به.

٨- فاعلم أن عدد كليهما سبعة، وللروح أعمال الأرواح، وللملائكة العامة تصرف الأمور الجسمانية، كما قال تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ [سورة القدر/٤] فما من أمر إلا وينزل به الملائكة والروح، وقال تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [سورة المعارج/٤] وفي كتاب النبي ذي الكفل عليه السلام ومكاشفات يحيى عليه السلام تمثل لهما الملائكة على صورة إنسان، وأسد، وبقر، ونسر، فهذه أربع، والخامس من الحيوانات لم ير، فإنه طرد وقد كان فيهم، وهو الشيطان رئيس عالم الديدان على صورة الحية، ولذلك سمي شيطانا وكذلك لم يذكرا ملكين آخرين على عالم النبات، فإنهما تحت ذلك المقام عند سدرة المنتهى، فهذه الخلفاء السبع دون الحملة العليا، وهم سبعة أيضا كما مر، وصرح به في كتب الأنبياء.

٩- القرآن علمنا من أحوال الروح والملائكة أمورا لم يكشف عنها في الصحف الأولى، كما أنها ذكرت أمورا سكت عنها القرآن، ولم تتعلق بها الحاجة العامة، فترك إشارات لطيفة ودلائل لائحة لذوي الألباب، ليعملوا فيها قلوبهم فيقتنوا بها كرامة زائدة. فذكر في القرآن الحكيم أولا

أن الله تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم بعد ما نفخ فيه من روحه.

وقد علمنا أن الروح نوع عال من عباد الله، فاتضح لنا أن الله إنما أمر الملائكة بطاعة الروح المقدس، وقد صرح القرآن بأن الروح المقدس مكين مطاع عند الرب، فلابد أن تكون الملائكة تحت حكمه.

وقد علمنا أن كل مخلوق في هذا العالم خاضع للإنسان، فهذا آية على أن فيه من ذلك الروح المقدس المطاع، وكلما ازداد الإنسان عبودية وتطهر من لوث النفس زاده الله حظا من الروح المقدس، وإطاعة العوالم بإذن الله تعالى. ومع ذلك نفى عنه إرادته من نفسه، فيصير عبدا كاملا، راضيا مرضيا كما جاء في وصف العباد المكرمين، وجاء في الخبر الصحيح "حتى أكون سمعه وبصره" إلى آخره فالعوالم تطيعه، وهو يطيع ربه، فطاعته طاعة الرب كما قال: ﴿إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [سورة آل عمران/٣١] فلا يكون إلها أو شريكه، بل عبدا كاملا في العبودية كالكلمة والقلم والكتاب للملك، فمن أطاع أحدا من ذلك أطاع الملك...

﴿...إلا رب العالمين الذي خلقني (لمحبته والشوق له) فهو يهدين (إلى حضرته) والذي هو يطعمني ويسقين) في الدنيا من وراء الحجب) وإذا مرضت فهو يشفين (من الأمراض الدنيوية، أفلا يشفي غليل الروح العطشان في هذه الحياة الدنيا) والذي يميتني ثم يحيين (كما هو يشفي بعد السقم) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (فإنه ديان، عادل، فصح الطمع فيه لأن يتغمدني بالمغفرة يوم الميعاد) رب: (الآن من شدة القربة دعاه بهذا الطريق كما دعا، في أول القول باسم رب العالمين) هب لي حكما وألحقني بالصالحين (من حزبك الذي وصل إليك من آبائنا)، واجعل لي لسان صدق في الآخرين (أي اجعل في خلفي من يصدق قولي ويلحق بي) واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ [سورة الشعراء/٧٧-٨٥]

(حيث ألحق بحزبك، وحيث تطعمني وتسقيني كما ربيتني وتغفرلي تحت جناح الرحمة).

فهذه الآيات تشير إلى اجتماع الصلحاء في جنة واحدة مع كثرتها، وتفاوت درجاتها، كما ترى في وجودك قوى بعضها فوق بعض مع أن روحا واحدا يجمعهن فإن أصحاب الجنة مجتمعون كما قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ [سورة الحجر/٤٧] ثم ترى بعد هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام ذكر أصحاب الجحيم فقال: ﴿كبكبوا فيها هم والغاوون (كما أنهم مكبون في هذه الدنيا على وجوههم، والشيطان تصويرهم الكامل الذي يمشي على بطنه) وجنود ابليس أجمعون﴾ [سورة الشعراء/٩٤-٩٥] أي سائر عالم المكبين من الذي يمشي على بطنه.

فإن تأملت هذه الآيات رأيت اجتماعين كما قال تعالى: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ [سورة الشورى/٧] ووصفهما الله تعالى حيث قال:

﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ [سورة الملك/٢٢] فالإنسان عالم واحد ويلحق برفقائه كما قال النبي الكريم ﷺ حين وفاته "بل الرفيق الأعلى" أي الآن تم أمر النبوة، وكملت أركانه فلا نصبر عن هؤلاء الرفقة. وسماهم بصيغة الواحد لشدة اتحادهم فليفهم من يفهم وهذا الرفيق ليس إلا من هو على الصراط المستقيم، الذي بين العبد والرب، كما قال: ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ وعليه جميع الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين كما ستعلم.

فإن اتضح أن الجنة عبارة عن الوصال، واتحاد الأرواح الطيبات، وتجلى الرب عليه حسب كمال استعداد هذا الإنسان الكامل الذي حوى

الأرواح السبع، وصار درجة ثامنة فانية تحت تجلي اسمه الأعظم، علمت أن عدد آيات هذه السورة منازل ودرجات سبع، وفوق كلـها، كالتـاج المبارك، آية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهي درجة ثامنة، عليها تجليات أنوار الله التي عبر عنها بالعرش كما بين في قوله: ﴿إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ [سورة القمر/٥٤-٥٥] ونرجع إلى تفسير هذه الدرجة الثامنة في [٤١] فهذه السورة كما هي جامعة للقرآن، فهكذا هي جامعة لعوالم الأرواح، وحاملة لعرش ربنا.

١٠- الحجاب الثاني يرفع عن سر الدرجات.

فاعلم أن الله تعالى بين قوله:

﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

في سورة النساء حيث قال عز من قائل:

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما: فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلمواتسليما. ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم (كما كتب عليهم على لسان موسى عليه السلام من قبل).أواخرجوا من دياركم (كما أخرج موسى عليه السلام أباءهم) ما فعلوه إلا قليل منهم، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا، وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (كما وعدهم على إطاعة هذا النبي الأمي) ولهديناهم صراطا مستقيما. ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، ذلك الفضل

٤١ كذا في الأصل .

من الله وكفى بالله عليما﴾ [سورة النساء/٦٤-٧٠]

فلم يلتبس على العلماء بعض ما في هذه الآيات، فإنهم اتفقوا على أن فيها بيان ما ذكر في الفاتحة من المنعم عليهم، فقالوا إنهم أربع درجات: النبي، والصديق، والشهيد، والصالح. فالآن نفصل هذا الأمر بالنظر في ما سبق ولحق بهذه الآية الواحدة التي فيها تفصيل الدرجات الأربع.

فاعلم أن هذه الآيات تخاطب أهل الكتاب، الذين فيهم المنافقون، وتدعوهم إلى الإطاعة الصحيحة، والانقياد التام للنبي الكريم ﷺ، وتخبرهم بأن الذين ظلموا أنفسهم بالعصيان إن جاءوا إلى النبي، واستغفروا الله مستشفعا بهذا النبي وجدوا الله تعالى توابا رحيما، فيغفر لهم ما سبق. فإذا ثبتوا على التوبة بالطاعة آتاهم أجرا عظيما، وهداهم الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم. فاتضح لنا أن تحت هذه الدرجات الأربع درجة للذين استغفروا بعد ما ظلموا أنفسهم، وهم الذين يلحقون بهؤلاء الأربع كما قال تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ [سورة النساء/٦٩].

فالتوبة بعد الظلم درجة مستقلة رفيعة، وكثر حمدها في القرآن و الإنجيل. وقد وجدنا في صفات الأنبياء: الإنابة (أولا)، والصلاح (ثانيا)، والشهادة (ثالثا)، والصديقية (رابعا)، والنبوة (خامسا)، لأنهم يجمعون درجات العبودية، وحسناتها. ثم هذه الدرجات الخمس بين درجتين كما ستعرف.

١١- فاعلم أن أول الدرجات التوبة وآخرها: الحمد، وبعض الأنبياء أحق ببعضها، وكذلك أتباعهم، وتعلم أن أتم النعمة في الدنيا آخر عهد الله بعباده، أي القرآن، كما أن أتم النعم في الآخرة لقاؤه، والرجوع إليه فيقرب إلى العقل أن يكون الحمد مقام آخر النبيين، وحسب ذلك ما جاء في القرآن ﴿وعسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ [سورة

الإسراء/٧٩] وإلى هذا يشير اسمه أحمد ومحمد وجاء في الحديث: "ان لواء الحمد بيده وهو قائد الغر المحجلين".

وهذه النكتة مفتاح لمعرفة درجات النبيين فإنا نرى أن آدم عليه السلام رأس التوابين، وجامع لصفتي الظلم والتوبة والاجتباء، ومن له حظ من علم الدين لا يزدرى درجة الظلم الذي من الجهل، فإنها أبجد الفطرة الإنسانية، وبها استحق كرامة الأمانة ولولاها لأبى كالسماء والأرض وليس هذا مقام شرحها فلا شك أن آدم عليه السلام على ابتداء الدرجات، وستعلم أنه بحسب الجامعية على آخرها أيضا.

١٢- فبعد ما علمت أولى الدرجات وأخراها نوجهك إلى سر الدرجات كلها. فاعلم أن في الأنبياء سبع درجات حسب آيات هذه السورة، فالآية الأولى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، تشير إلى درجة محمد ﷺ كما علمت آنفا والآية الثانية: ﴿الرحمن الرحيم﴾، إلى درجة عيسى عليه السلام، لما كان على غاية صفة الرحمة لوجوه ظاهرة، وخفية، فمن الخفية أن اسم الرحمن يستعمل كثيرا في سور خصت بذكره وهذه نكتة لا أدرى ذكرها أحد من المفسرين ومن الوجوه الظاهرة أن الله ذكر خاصة في صفة أتباعه: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ [سورة الحديد/٢٧].

والآية الثالثة: ﴿مالك يوم الدين﴾ تذكرنا منزلة موسى عليه السلام، لما كان على كمال العدل، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، و لم يعط الله تعالى نبيا قبله من الأحكام المفصلة ولا بعده مثل ما أعطاه كما شهد به القرآن ومثل لهم دينونة القيامة، وملكوته، فكان الله تعالى عليهم ملكا وأراهم آياته ليوقنوا بيوم الدين ومالكه تأمل في آية:

﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ [سورة الأنعام/١٥٤].

ولا يلتبس ذلك على من نظر في التوراة، وحالة سلطنة بني إسرائيل من عهد موسى عليه السلام إلى داود عليه السلام، حين جدد الله بهم العهد، وبنى فيهم بيته المقدس، فإن ملكوت الرب لا يخفى. (انظر كتاب ملكوت الله).

فالآية الرابعة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ تذكار لعهد داود عليه السلام لأن شعب الله قد دارت عليهم الدوائر، فتداركهم بعون جديد، وأعطاهم ملكا عظيما، وأقام فيهم بيتا لنفسه، ليعبدوه ويباركوا بهذا البيت المقدس كما يظهر لك إن رأيت تاريخهم في الكتب المقدسة وقد ذكر الله تعالى قصة داود عليه السلام في سورة البقرة، بحيث تذكر عون الله ونصرته، وتعلم أن مقصده ليس غير العبادة وخلاص بيته المقدس انظر تفسير آية:

﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ [سورة البقرة/٢٥١].

فتعلم حقيقة العبادة والجهاد فكان داود عليه السلام أول ملوكهم.

وأما طالوت الذي قبله فكالممهّد له. وإنما ملك لوقت، وسلب الملك. وأما تأخير بناء البيت إلى عهد سليمان عليه السلام، فكان لسبب خاص. وكان داود عليه السلام هو الذي أراد الأمر، وسأل الله تعالى فمنع لحكمة، و وعده الله أن ابنه يحوز هذا الشرف.

فلا يخفى على البصير الناظر في كتب الأنبياء أن داود عليه السلام هو رأس الملوك في بني إسرائيل، ولذلك ترى في الإنجيل أن عيسى عليه السلام هو وارث داود عليه السلام. وكثر في الكتاب التعبير عن سلطنة بني إسرائيل بسرير داود عليه السلام، فهو العبد المستعين، اتل الزبور لتعلم تضرعات داود عليه السلام للنصرة، والملك وقمع الأشرار، ونفيهم، ولذلك خص الله تعالى الزبور لخبر بشارة وراثة الأرض حيث قال:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [سورة الأنبياء/١٠٥]

وكثر هذا القول في أقوال سليمان عليه السلام.

هذا، والآية الخامسة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ ظاهرة الإشارة إلى درجة إبراهيم عليه السلام. فإن الصراط المستقيم هو التوحيد، والتوجه إلى الله. وما من نبي إلا على هذا الصراط.

١- ولكن إبراهيم عليه السلام هو رأس الموحدين. وكم في القرآن من الآيات تسمى هدى إبراهيم عليه السلام صراطا مستقيما.

٢- وهو أول من كسر الأصنام.

٣-وهو الذي رفع قواعد بيت التوحيد كما بنى داود عليه السلام بيت النذور، والقدس (انظر هذا البحث في سورة ألم تركيف).

٤- وهو أول من فر إلى الله تعالى بدينه، فصار رأس المهاجرين، ولذلك أمر الله نبينا باتباعه، فإن شؤونه كشؤونه.

٥- وهو الذي سمانا مسلمين من قبل، فالمسلمون أحق بإبراهيم عليه السلام. اتل قوله تعالى:

﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ [سورة آل عمران/٦٧-٦٨].

انظر كيف ختم الله الآية بأنه ولي المؤمنين، فاستقام سبيل الولاية، واتصل بربنا الذي على صراط مستقيم، وقوله تعالى:

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ [سورة الأنعام/١٦١-١٦٢].

فتبين لك أن الصراط المستقيم له دلالة خاصة على درجة إبراهيم عليه السلام لإقدامه، وتشميره، واستقامته ونزيد البحث عن سعة معنى هذه الكلمة الجامعة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(١٣)

وبعد ما علمت مطابقة الآيات الخمس بهؤلاء المرسلين، نشير إلى مطابقة الصفات الأربع من النبوة، والصدق، والشهادة، والصلاح بالأربعة منهم، ثم نرجع إلى شرح الثلاث الباقية.

فاعلم أن الأولى درجة محمد النبي الكريم ﷺ، فإنه سمي خصوصا في التوراة باسم "النبي" فهذه لام العهد مختصة به ﷺ.والثانية درجة عيسى عليه السلام الصديق. وإنما سمي الصديق إبراهيم، وإسماعيل، وإدريس، ومريم عليهم السلام خصوصا ولكن أطلق هذا الاسم عموما للصادقين في الإيمان حيث قال: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم﴾ [سورة الحديد/١٩] فكل نبي صديق كما أن كلهم شهداء مع ذلك نرى أن الصديقية زهرة تخرج من الطهارة، ولم يوصف لنا نبي كما وصف عيسى عليه السلام بالطهارة، فقال الله تعالى في صفته: ﴿ورافعك إلي ومطهرك﴾ [سورة آل عمران/٥٥] وفي صفة أمه: ﴿إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ [سورة آل عمران/٤٢].

وطهارة العبد أن يخلص نفسه لربه، وأرى هذه الصفة ساطعة في إبراهيم عليه السلام، كما أنه ترك نفسه، وماله، وأباه، وقومه،وهاجر إلى بلد قفر وكذلك حال إسماعيل ومريم عليهما السلام لتخلصهما لخدمة بيت الله وتبتلهما فالصديق عبد صادق في الطاعة، ولذلك سمي الملك[42] يوسف عليه السلام

---

٤٢ أي رسول الملك

صديقا، فإنه كان عنده طاهرا من كل غش، وعبدا صادقا في العبودية، ولذلك قال: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليهم﴾ [سورة يوسف/٥٤-٥٥].

فالصديق أول من استحق الأمانة والخلافة، ولذلك جعل الله عيسى عليه السلام إماما لجميع بني إسرائيل، فإنه كمل في درجة الإخلاص للرب والفداء بنفسه لأمره فصار ملكا على جميع إسرائيل كما جاء في القرآن والإنجيل صراحة

فبعد ما جعله الله على هذه المنزلة من الطهارة والأمانة والملك جعله مبشرا بأحمد الخاتم المكمل، ليكون بشارة بالغة وحجة بازغة لبني إسرائيل، ليؤمنوا بنبي منهم، ويستفتحوا به على ظالميهم. وقد وقع هذه البشارة بحيث لا يجحده جاحد، فإن محمدا ﷺ بأدنى مدة فتح وأباد الأمم الثلاث فارس ومصر والروم التي استعبدت بني إسرائيل، فانتصر لذرية إبراهيم عليه السلام، واخوته وكل واحدة منهن أعظم الأمم على الأرض، وليس في التاريخ مثال لهذه الواقعة (وبسط الكلام في سورة البقرة)٤٣.

ثم ترى قربهما، لما سماه الله تعالى رحمة، حيث قال: ﴿ولنجعله آية للناس ورحمة منا﴾ كما سمى النبي الكريم ﷺ (رحمة للعالمين) وهكذا سمى كليهما نورا، وسراجا، وعبدا، ومباركا، فإن صح قرب حالهما، وصح أن درجة النبوة الكاملة لنبينا، وصح أن درجة الصديق بعد درجة النبي فيوشك أن يصح عندك أن عيسى عليه السلام على هذه المنزلة حسب الكمال بعد خاتم النبيين ونزيد على هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

والثالثة درجة موسى عليه السلام الشهيد وما من نبي إلا وهو شهيد،

---

٤٣ وطبع هذا التفسير ''تفسير سورة البقرة'' للمؤلف قبل سنوات .

وأصحابه شهداء كما صرح به القرآن ولكن موسى عليه السلام أكبر الشهداء بعد محمد وعيسى عليهما السلام، لما أنه أشهد على أمته بتجليات باهرة، وآيات ظاهرة من الله تعالى. والتوراة إلى الآن أكبر شهادات الجزاء، وملكوت الله، وأنه حاكم على العباد ثم إنه عليه السلام جعلهم شهداء للناس بعد ما أوقفهم على المشهد، وأعطاهم كتابا مبينا، ثم وقف بين يدي جبار عنيد ظالم، وشهد بالحق جهارا وقد جعله الله شهيدا بالحق، وناصرا له فطرة فوكز القبطي على ظلمه، وأمر أمته بأن يقتلوا أنفسهم، وغضب للحق. فأي نبي قبله أمر أصحابه وأتباعه كأمره ؟ وهذا هو معنى اسم الشهيد فهو رأس الشهداء في بني إسرائيل وكل من ينطق بالحق وينصره ولا يخاف أحدا دونه، ويجاهد بنفسه وذات يده فهو من الشهداء.

فبعد ما جعل الله موسى كاملا في الشهادة جعله أكبر الشهداء على نبوة محمد عليهما الصلوات، فإنه وعد بني إسرائيل بأن الله يكملكم بنبي من إخوتكم، وأخذ ميثاقا غليظا برش الدم على نقباء قبائله الاثنى عشر أن يؤمنوا بهذا النبي، وان الله يعطيهم الفتح به على أعدائهم وأخبرهم باللعنة والعذاب إن يكفروا به، فوقع كل ما أخبر عنه موسى عليه السلام. وتفصيل هذا البحث في سورة المائدة تحت آية: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم...﴾ [الآية/١٢] وفى سورة البقرة تحت آية: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا...﴾ [الآية/٨٩].

والرابعة درجة داود عليه السلام الصالح، فإنه رجل اجتباه الله للخلافة كما صرح به القرآن. وأطلق الله هذا الاسم على كثير من الأنبياء لنعلم أنهم قدوة للصالحين. والصلاح صفة الرجل من جهة كونه أهلا للمعاشرة،

ونظام المدنية وأصلها العفو وبسط العذر للمجرم والحلم والأناة وعدم التقشف والتبرم بالدنيا مع الخضوع والاستكانة لله تعالى. فالصلاح ذو درجات عالية. وأصله حسن المداراة، وأهلية للتمدن والمعاش. وبهذا المعنى يتضح حكمة استعمال هذا الاسم في مواقع كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿وانكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ [سورة النور/٣٢] وقوله تعالى: ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب﴾ [سورة النساء/٣٤] وكثر في التوراة والإنجيل ذكر هذه الصفة للذين يرثون الأرض، اتل حال داود عليه السلام مع شاول (طالوت) في صموئيل الأول ومع البشالوم في صموئيل الثاني، ولذلك جعله الله مخبرا لخلافة هذه الأمة الوارثة للأرض المقدسة، كما مر آنفا.

فإذا رأيت أربع درجات النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكونهم على الصراط المستقيم، وقد علمت أن إبراهيم عليه السلام صاحب هذا الصراط، وأنهم في ذريته ومجتمعون معه، تجلت لك على هذا الصراط المستقيم قافلة روحانية، قائدهم محمد النبي الكريم ﷺ، بيده لواء الحمد يخفق عليهم أجمعين، فهو الإمام لحزب الله، وأول قائل على باب الجنة: (الحمد لله)، والمصلون في الدنيا بهذه الكلمات هم خلف هذا الإمام وهذا هو المراد من قوله عليه السلام: "أنا قائد الغر المحجلين" وقد علمنا أن المراد بهم المصلون، لما عليهم من آثار الوضوء فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قالوا: الحمد لله رب العالمين بصوت واحد ونحن متعودون به الآن ع

لكل امرئ من دهره ما تعودا

ولله الحمد. وقد علمنا أن الله تعالى جعل إبراهيم عليه السلام إماما عاما للناس، قال تعالى: ﴿إني جاعلك للناس إماما﴾ [سورة البقرة/١٢٤] والأمم الباقية المنتسبة إلى نبي من الأنبياء هم اليهود، والنصارى،

والمسلمون، وكلهم يتخذون إبراهيم عليه السلام إماما، فهو السند الأعلى، وقد أنطقه الله بأكبر البشارة بنبينا عليهما الصلاة السلام، و أوضحها صراحة بما قد دعا لبعثته في بلده، ودعا أن يرثه ولاية بيت الله الذي بناه، مركزا للتوحيد.

١٤- الآية السادسة إشارة إلى درجة نوح عليه السلام، لما نرى في القرآن والتوراة أن لا نبي يذكر قبل إبراهيم عليه السلام إلا نوح عليه السلام، ثم كما جاء في بيان المنعم عليهم من الناس تفصيل الدرجات الأربع، فكذلك جاء تفصيل درجات المنعم عليهم من النبيين، حيث قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا﴾ [سورة مريم/٥٨].

فقدم نوحا في ذكر الذين أنعم عليهم، ولا شك أن نعم الله شاملة لجميع الخلق ومع ذلك فيها خصوصية، وقد جعل الله نوحا عليه السلام أول من خصه الله بها، فصار قدوة للذين أنعم الله عليهم من جهته. ولذلك عرفنا له مقام هذه الآية، والباقون من أهل الإنعام معه، وقد جعله الله مبشرا بأكبر نعمه، وهو تكميل الدين بنبينا عليه السلام حيث جعل الله ذرية سام أهل الدين، وأن الباقي من نسله ينعم بهم، و لم يصدق هذا إلا على نبينا عليه السلام، لأن بعثة من قبله لم تكن عامة لكافة الناس.

١٥- والآية السابعة درجة الذين خرجوا من المغضوب عليهم إلى المرحومين، ومن الضالين إلى المهتدين كما أشرنا إليه في الفصل التاسع، وهم الذين تابوا من أهل الكتاب وغيرهم. فالمغضوب عليه من نبذ بالحق بعد ما عرفه وتبين له، كاليهود، والضال من أخلد إلى الباطل، وألح عليه، كالنصارى فالمنقذون من هؤلاء هم الملحقون الآخرون بأولئك الأربع، وبهم يكمل ويتم خاتم كمال آدم عليه السلام. وهناك يغلق باب الجنة فالآية

السابعة متعلقة بالتوابين من اليهود والنصارى، اللاحقين بالذين أنعم الله عليهم كما مر في٤٤(٩).

ولما كانت التوبة أودعت الفطرة، وبها يدوم السلوك على الصراط، وعلمنا أن آدم عليه السلام رأس التوابين فهمنا من الآية السابعة درجته، وقد مر في أول (١٠) ٤٥ بعض التوضيح.

---

٤٤ يعني الفقرة التاسعة من هذا الفصل .

٤٥ يعني الفقرة العاشرة .

الفصل الثاني

١- هذه سورة الصلاة، بدليل التواتر العملي، والقولي (أي كحديث الخداج، وقسمت الصلاة بيني وبين عبدي وغيرهما)، وبما أنا نجد ما يقربها في صلاة علمها عيسى عليه السلام للحواريين، وإن كانت النصارى قد نسوا بعض عبارتها ومدلولها، كما قال الله تعالى:

﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به﴾ [سورة المائدة/١٤].

فلنذكره لتتضح مطابقتهما وبراعة القرآن وفي الإنجيل المنحولة إلى لوقس:

''قد وقع أنه (عيسى عليه السلام) كان يصلى في مكان فلما فرغ سأله بعض حوارييه: مولانا علمنا الصلاة كما كان يحيى يعلمها أتباعه. وقال لهم إذا صليتم قولوا أبانا الذي في السماء سبحان اسمك ليأتين ملكك ليقعنّ رضاك في الأرض كما في السماء أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا. واعف عنا فإننا أيضا نعفو عن كل من عليه حقنا. ولا تمدنا إلى الفتنة بل أنقذنا من الشر'' ٤٦.

وفي الإنجيل المنحول إلى متى زيادة بعدها:

"فإن لك الملك، والقوة، والعظمة إلى الأبد. آمين" ٤٧.

ولم تكن هذه الجملة في أكثر النسخ من كتاب متى، فلعلهم زادوه جوابا من المقتدين.

---

٤٦ إنجيل لوقا ١١: ١-٤ .

٤٧ إنجيل متى ٦: ١٣ .

وإن تأملت في هذه الآيات تبينت مشابهتها بالفاتحة. قوله "أبانا الذي في السماء" مبدل، والأصل "ربنا" كما حكى الله قوله في سورة آل عمران، والمائدة، ومريم، والزخرف: ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾. وقوله: ''سبحانك'' مثل الحمد لله: ﴿ولكن سبحانك في الأصل إجلال، والحمد إجلال وشكر معا، كما ستعلم﴾.

وقوله: "لتأتين حكومتك ليقعن رضاك في الأرض كما في السماء" دعاء ليوم الدين، و﴿مالك يوم الدين﴾ إذعان له وتوكل عليه. وتجنب الدعاء لعظم الأمر، كما قال في سورة الشورى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ [سورة الآية /١٨].

وقد ساغ الدعاء لعيسى عليه السلام، لأنه كان ﷺ يبشر ويدعو لحكومة إلهية تأتى بعده، وكان ذلك شاملا لبعثة نبينا ﷺ. فأنزل الله كل ما ادخر لعباده من الشريعة الفاضلة. وكم من آية في الإنجيل تشير إلى أنه أراد بالحكومة الإلهية بعثة نبينا. ونفصلها إن شاء الله تعالى تحت آية: ﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [سورة الصف/٦].

ولكن حين بعثة نبينا لم يبق من الحكومة الإلهية إلا يوم الدين، فما دعا ولكن توكل ورجا له بعد حمده وذكر ربوبيته ورحمته، كما روى في الحديث المشهور: "قسمت الصلوة بيني وبين عبدي" حتى قال: "وإذا قال (عبدي): ﴿مالك يوم الدين﴾ يقول الله: فوض إلى عبدي".

وهذا التفويض حسن، كما كان يفعل عيسى عليه السلام بعد دعائه.

وقوله: "أعطنا كل يوم وظيفة خبزنا" كان كلامه أمثالا، ومثل الخبز لروح القدس الذي به حياة الأبرار. فقد فسره بنفسه في إثر دعاء الصلاة، كما كان دأبه، فقال: "إن أنتم مع كونكم أشرارا تعلمون إعطاء هبات حسنة لأولادكم فما أكثر عطاء الأب السماوي (ربنا الأعلى) من

روح القدس لمن يسئلونه"٤٨.

وقال عليه السلام: " مكتوب (في كتاب موسى) إن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده بل بكل كلمة من الله٤٩.

(أي بأمره وحكمه، فحياتكم في إطاعة شريعته). هذا يشير إلى قول موسى عليه السلام "لكي يعلمكم أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده بل بكل ما يخرج من فم الرب يعيش الإنسان"٥٠.

فقوله: "أعطنا وظيفة خبزنا" عبارة عن: آتنا ما به حياتنا الأبدية، وهو روح الهداية الذي يهدي إلى صراط مستقيم، كما بين عيسى عليه السلام السبيل إليه في شرح الصلاة، كما ذكره متى فقال:

"ادخلوا الباب الضيق فقد توسع الباب وتفسح الطريق الذي يهدي إلى الموت ويكثر داخلوه. وقد ضاق الباب ودق الطريق الذي يهدي إلى الحياة وقل من يجده" ٥١.

فمثل سبيل الحياة بصراط دقيق، وهو الصراط المستقيم الذي يهدي العبد إلى الرب، وهو أصل الحياة.

فاعلم أن الحياة هو حب الله بكل سرنا، وهدى الله الذي جاء به النبيون صراط إلى هذه الحياة. ومثل ذلك ما جاء في القرآن العظيم: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [سورة الأنعام /١٢٢].

---

٤٨ إنجيل متى ٧: ١١ .

٤٩ إنجيل متى ٤: ٤ .

٥٠ التثنية: ٨: ٣

٥١ إنجيل متى ٧: ١٣-١٤ .

فجعل الإيمان بالله حياة واتباع الشريعة سلوكا بالنور، وهما لا يفترقان، كما قال الله تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ [سورة آل عمران/ ١٠١]. وهذا تأويل كلام الإنجيل، يشهد به ما جاء في القرآن في ذكر كلام عيسى عليه السلام عدة مرات حيث حكى الله تعالى قول عيسى عليه السلام: ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾[سورة آل عمران/٥١] يعني عبادة الله وحده، وذلك ينطوي على إطاعة هداه كما نبينه. فكان دعاء عيسى عليه السلام كدعائنا: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [سورة الفاتحة/٦].

وفي قوله: "واعف عنا فإننا أيضا نعفو عن كل من عليه حقنا''. يسأل العفو بوسيلة عمل العفو.

وفي قولنا: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ نسأل الاستعانة على عمل كل حسنة والكف عن كل سيئة، فسلمنا العفو والأجر إلى ربنا، وراعينا الأدب من وجوه. فما قلنا: أعنا، وما قلنا: اعنا لأنا نعبدك مخلصين. فما ذكرنا الوسيلة إلا كناية، وهو: أنا لم نتخذ معبوداً غيرك. ثم جئنا بوسيلتين، فإن قولنا: ﴿إياك نستعين﴾ في نفسه وسيلة، فإننا لم نتخذ غيرك مستعانا ثم هاتان الوسيلتان من أعظم الوسائل، فإن أعظم الأعمال هو التوحيد، كما قال عيسى عليه السلام حين سأله بعض الكتاب: ''أي الأحكام أولها'' ٥٢، فقال: "استمع يا إسرائيل ! الله ربنا إله واحد وأن تحب الرب إلهك بكل قلبك وبكل روحك وبكل عقلك وبكل قوتك. هذا أول الأحكام ٥٣.أي كما جاء في صحف موسى. والتوحيد أول تعليم كل نبي

---

٥٢ إنجيل مرقس ١٢: ٢٨ .

٥٣ إنجيل مرقس ١٢: ٢٩-٣٠ .

كما يشهد به القرآن،وتجده في سورة هود وغيرها.

وقوله: "ولا تمدنا إلى الفتنة (أي الابتلاء) بل أنقذنا من الشر" يعني احفظنا عن سوء الابتلاء فتزل قدم بعد ثبوتها، وأخرجنا عن السوء إن وقعنا فيه، أي لا تفتنا، ونجنا. وهذا دعاء حسب حالهم، وقد كثر في الإنجيل الدعاء بالحفظ عن الابتلاء لضعفهم و كثرة ابتلائهم.

ولكن الابتلاء من سنة الله، فلابد من الابتلاء، كما قال: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [سورة الملك/٢].وقال: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [سورة العنكبوت/٢-٣].

والقرآن أخبرنا عن فتن ابتلى بها النبيين. قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما﴾ [سورة البقرة/١٢٤].

و ابتلى آدم بالشجرة، ونوحا بابنه، فقال: ﴿أني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ [سورة هود/٤٦]. فعاذ بالله واستغفر لذنبه. وقال تعالى: ﴿وظن داود أنما فتنا فاستغفر ربه﴾ [سورة ص/٢٤].

وقال تعالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾ [سورة ص/٣٤]. وابتلاء موسى وهارون عليهما السلام مذكور في كتب اليهود، حتى أنهما ماتا دون "يردن" فزكّاهما الله تعالى في الدنيا. وستعلم ابتلاء عيسى عليه السلام، وابتلى يوسف وأيوب عليهما السلام. واتل شكاية أيوب عليه السلام من كتابه. وابتلى يحيى عليه السلام بقتله، وما لم نعلم نفهم من قوله تعالى: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم﴾ [سورة الملك/٢]. وفي آيات كثيرة.

ولكنه عليه السلام لتخشعه و وهن أمته يستعيذ من الفتنة، وقد فتن هو أربعين يوما بل كان طول عمره في الابتلاء حتى رفعه الله ونجاه، كما أخبرنا القرآن: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ [سورة آل عمران/٥].

وقد فتنت أمته كثيرا، وثبت الله المؤمنين والمؤمنات منهم كما أخبرت به سورة البروج، وشهدت به وقائع جمة.

(وكأنه عليه السلام رأى الفتنة فاغرة لأمته، كما قاساها نفسه. ولكي ينكشف لك هذا الأمر اذكر ما وقع على أمته، وكيف غلبت الفتن عليها حتى لم يبق رجاء إلا في محمد ﷺ المنجي المنتظر).

وأما "نجنا" فقد نجاه الله، ولكن بطريق أحسن مما سأل، ولكنه مع سؤاله كان راضيا بمشيئة الله تعالى التي هي أكبر منفعة وهكذا ينتفع بالرضى. كأني به عليه السلام وهو ساجد في جبل زيتون في مقام "جسمين" معتزلا من حوارييه على مرمى حجر يتضرع قائلا:

"يا رب اصرف عني هذا الكأس إنك على كل شئ قدير ولكن آثرت رضاك على رضاي فلينزل قضاءك" ٥٤.

وقد أمر حوارييه أن يدعوا معه ولكنهم ناموا، وهو يجئ إليهم، ثم يذهب ويدعو ربه حزينا، راجيا، خائفا ٥٥.

وكأني به حين انقطعت عنه كل وسيلة حتى قال: "إلهى إلهى لم خذلتني" ٥٦ وكأني به حين كأس الحمام بلغت شفتيه، فصر فها الله ورفعه،

---

٥٤ إنجيل مرقس: ١٤: ٣٦ .

٥٥ انظر إنجيل مرقس: ١٤: ٣٧-٤١ ، ومتى ٢٦: ٤٠-٤٤ .

٥٦ إنجيل متى ٢٧: ٤٦ ، وإنجيل مرقس ١٥: ٣٤ .

وطهره، ونجاه، ذلك تقدير العزيز العليم.

وكذلك نجى الله المؤمنين من أمته حين آمنوا بنبي أمي بشر به، وسيؤمنون فينجون. فأجاب الله دعاءه في المخلصين من أمته، فدخلوا في الإسلام أفواجا وسيدخلون. وصرف الإجابة عن الظالمين، كما ترى في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين﴾ [سورة البقرة /١٢٤].فهذا معنى دعائه عليه السلام: "لا تفتنا ونجنا".

لا يخفى أن هذا الدعاء فرع لدعائه " اعطنا كل يوم وظيفة خبزنا" فإن الخبز هو روح القدس وروح الهداية، فمن يهده الله تعالى فقد نجاه من السقوط في الفتنة، وأنقذه من الشر الروحاني. فدعا لأصل الهداية. ثم بما فسر أظهر أن لهذه الحياة صراطا دقيقا وبابا ضيقا، فما هو إلا هداه تعالى يجئ به النبيون.

فما جاء بهذا الدعاء إلا اهتماما بشأن الشريعة، والضلالة المخوفة على أمته ودأب اليهود الذين افتتنوا بنبوة عيسى عليه السلام كان عثرة في سبيلهم، كما جاء في الإنجيل. وجاء في القرآن: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم﴾ [سورة المائدة/٧٠-٧١].

فهكذا قولنا (صراط الذين) الآية فرع وموضح لما مر، تنبيها على الاهتمام بأمر هدى الله الذي ضلت فيه أمة، وباءت بسخط الله أمة. ولما أن القرآن قول فصل أوضح هذا الأمر كل الإيضاح.